١٥

انبثاق الجانب النفسي والشعور بالغربة (شعر السيّاب انموذجاً)

The emergence of the psychological aspect and the feeling of alienation (Al-Sayyab's poetry is an example)

م. م. جمال علي شهاب حمد

JAMAL ALI SHEHAB HAMAD

مكان العمل: المديرية العامة لتربية الانبار

الايميل: zahrmhmwd458@gmail.com

المقدمـــة :

الجانـــب النفســـي عنـــد الشـــاعر الســـيّاب أدى إلـــى مـــوارد كثيـــرة فـــي حياتـــه فقـــد انعكـــس هـــذا الجانـــب علـــى أفكـــاره , حتـــى إنّ ملامـــح الجانـــب النفســـي كانـــت طاغيـــة علـــى أشـــعاره , وخاصـــة وهـــو يعكـــس الواقـــع الوجـــداني , وهـــي تحـــدد أبعـــاد تجربته ضمن إطار زماني ومكاني كان لها أثرها الكبير في نفس السيّاب .

فقـــد أظهـــر الجوانـــب النفســـية تجســـيدات موضـــوعية وواقعيـــة ومتخيلـــة , ارتـــدى فيهـــا الشـــاعر جـــوهر التجربـــة علـــى المســـتوى الخـــاص بالشـــاعر أو المســـتوى العـــام , فالأحاســـيس التـــي يتمتـــع بهـــا الســـيّاب ولّـــدت ذلـــك الإحســـاس شخوصـــاً عاشـــت مـــع الشـــاعر الســـيّاب , فـــالألم الـــذي حملـــه الســـيّاب مِـــن تلـــك الأمـــاكن كمـــا فـــي (جيكـــور) ذلـــك المكـــان الـــذي وجـــد عنـــد الشـــاعر أبعـــاد ودلالات جـــاءت رافـــدة للمعـــاني التـــي أراد أن يثيرهـــا مِـــن خـــلال بثـــه لحزنـــه وألمـــه , مشـــكلاً منهـــا كثافـــة نصـــية واســـعة عنـــد الشـــاعر , فهـــي عالمـــه الأمثـــل وطاقتـــه الروحيّـــة وخيبتـــه الطفـــولي حتـــى مثلـــت الواقـــع والحلـــم والخيـــال , فكـــل مـــا أحـــاط بالشـــاعر بـــدر شـــاكر الســـيّاب كـــون حقيقـــة واقعيـــة فـــي حياتـــه عكســـت كـــلّ الجوانـــب النفســـية التـــي ألمـــت به فهو بحق شاعر الإحساس بالألم والحرقة والفراق .

بـــدر شاكـــر السيّـــاب حياتـــه وآثـــاره :

ولـــد بـــدر شـــاكر الســـيّاب ســـنة (١٩٢٦م) بقريـــة بقيـــع الواقعـــة فـــي الجنـــوب الشـــرقي مِـــن البصـــرة فـــي العـــراق , كـــان شـــديد التعلـــق بأمـــه التـــي شـــاءت الأقـــدار وخطفهـــا المـــوت , ممّـــا أثـــر علـــى حياتـــه وطغـــى عليهـــا جوانـــب نفســـية أثـــرت عليـــه , بـــدأ الســـيّاب يـــنظم شـــعره بالعاميـــة والفصـــحى, كمـــا كانـــت بدايتـــه فـــي شـــعره هـــي وصـــفه للطبيعـــة , انتقـــل بعـــد ذلـــك ليكتـــب الشـــعر الـــوطني , وبـــذلك أضـــحى بـــدر شـــاكر الســـيّاب شـــاعراً كبيـــراً وقـــد كـــان عامـــه الدراســـي الأخيـــر فـــي الثانويـــة حـــافلاً بالشـــعر بـــالرغم مِـــن إنّ معظـــم قصـــائده قبـــل هـــذه الســـنة ضـــاعت وتلاشـــت باســـتثناء بعـــض القصـــائد , وأولهـــا قصـــيدة (علـــى الشـــاطئ) وراحـــت موهبتـــه

تنمو وتزداد وطموحه يكبر ويتبلور واتخذ الشعر سبيلاً للتعبير عمّا يجش في نفسه الفياضة وبعد تخرجه صدم بموت جدته الحضن الدافئ الذي كان يعوضه فقدان أمه[١] .

انتقل السياب إلى دار المعلمين في سنة (١٩٤٣م) فرع اللغة العربية , وأصبح عضواً في الجماعة الأدبية , وقد تعرف السيّاب بناجي العبيدي في مقهى الزهاوي واعجب بجريدة الاتحاد ونشر أول قصائده فيها[٢] .

وقد أصدر السيّاب مجموعته الشعرية (أساطير) التي كانت نتاج السنة الأخيرة التي قضاها السيّاب في دار المعلمين , وكتب في العديد مِن الصحف ومنها (الثبات) و (الجبهة الوطنية) و (العالم العربي) ثم اشتغل في مديرية الأموال في سنة (١٩٥١م) , ولمّا هزت بغداد مظاهرات صاخبة نشر قصيدته في جريدة الجبهة الشعبية تنبأ فيها بحصول انتفاضة وكان مِن نتائج ذلك أن تسلم الجيش السلطة وبدأ حملة الاعتقالات , فقرر السيّاب الهروب إلى البصرة وبعدها انتقل للكويت , سنة (١٩٦٠م) , زار بيروت وطبع ديوانه وشارك في مسابقة نظمتها مجلة شعر فصدرت المجموعة الشعرية له أنشودة المطر التي ضمت ثلاث مِن المطولات (حفار القبور – المومس العمياء – الأسلحة والأطفال) , زفي نهاية حياته كانت عام (١٩٦٤م) نقل إلى الكويت مِن أجل العناية في مستشفياتها وأنّه مصاب بتصلب ضموري , وبعدها فارق الحياة[٣] .

البحث :

يمكن تقسيم البحث على مبحثين :

---

(١) الديوان , بدر شاكر السياب , دار العودة , بيروت , ط١ , ١٩٧١م : ١/ ٢٢ .
(٢) الديوان , بدر شاكر السياب , دار العودة , بيروت , ط١ , ١٩٧١م : ١/ ٣٣ .
(٣) بدر شاكر السيّاب , دراسة في حياته وشعره , إحسان عباس , دار الثقافة , بيروت , ط٥ , ١٩٨٥م : ٣٦١ .

الأول : الجوانب النفسية عند الشاعر وأسبابها :

الثاني : تأثيرات الجانب النفسي والشعور بالغربة :

المبحـــث الأول : الجوانب النفسية عند الشاعر وأسبابها :

ثمــة جوانــب نفســية مــرت فــي حيــاة الســيّاب انعكســت فــي شــعره فهــو شــاعر ابتلــى بمــا لــم يبتلــي بــه شــاعر آخــر مِــن مــرض مــزمن قيــد حياتــه وقيــد حركتــه فــأدرك إنّ التجربــة ضــرورة ملحــة فــي عملــه الابــداعي الشــعري فتصــاعد نمــوه وتجدده الابداعي[٤] .

فالشــعر عنــد الســيّاب وصــل إلــى حاجتــه الماســة إلــى تلــك التجــارب الناجمــة مِــن المعانــاة والمأســاة التــي عاشــها وخاصــة إنّــه فقــد معنــى البعــد حــين انفــرد بمعالجة الموت وفقد القدرة على الربط بين المحنة الدانية والجماعية[٥] .

فقــد نشــأ منــذ نعومــة أظــافره محيطــاً بالشــؤم والحــزن الــذي ســيطر عليــه منــذ تلــك النشــأة بوفــاة والدتــه وهــو فــي ســن السادســة وتربــى فــي احضــان جدتــه , فــالفقر والــداء جعــل منــه شــاعراً متشــائماً , فهــذه الجوانــب النفســية احاطــت بــه منــذ صــغره , لقــد وفــد الشــاعر إلــى عــالم متنــاقض , مقــارض, لا يفقــه معنــى لأحداثــه , والــد موجــود مفقــود , يتمــه بوالدتــه كأنّمــا يتمــه بولــده , أيضــاً تنــوء موطــوءة بأعبائها[٦] .

وكــذلك مــا أحــاط بــالبلاد مِــن الجــوع والحاجــة أثــرت علــى حياتــه وغيّــرت مِــن جوانبه النفسية فهو يقول[٧] :

---

(٤) ينظر : دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر , قادة عقاق , اتحاد كتاب العرب , دمشق , ٢٠٠١م : ١٤٣ .

(٥) ينظر : اتجاهات الشعر العربي المعاصر , احسان عباس , دار الشروق , ط٣ , ١٩٨٣ : ١٣١ .

(٦) ينظر : الشعر العربي المعاصر دراسة وتقويم , إيليا الحاوي , دار الكتاب العربي , بيروت , ١٩٨٦م : ١/ ١٤ .

(٧) الديوان , بدر شاكر السيّاب , دار العودة , بيروت , ط١ , ٢٠٠٠م : ١/ ٥٠٩ .

وعيون الفلاحين ترتجف المذلة في كواها

والغمغمات رآه

يسرق ....

لو أنّ غير الشيخ

وكأنّ وسوسة

السنابل والجداول والنخيل

أصداء موتى يهمسون

رآه يسرق في الحقول

حيث البيادر تقصد الموتى فقراً ذا اتساع

يجمع الشاعر الشتدات مِن الأفكار التي ألمت به وأثرت على جوانبه النفسية حيث واقع بلاده وصورة الفلاحين وما أحاط بهم مِن ألم وسيطرة الاقطاع عليهم وممارسة أساليب للقمع والتشريد والحرمان , فالشاعر يرسم ملامح الفلاح الذي أصابه الجوع فدعاه إلى أن يسرق مِن الحقول التي كانت قوتاً لعمله , فلم يكفه ذلك الرمق ولم يسد جوعه , فأسلوبه هذا جعل مضمون قصيدته ذات طابع اجتماعي فقد ارتبطت هذه القصيدة بواقع انتشر في بلاده وسيطر عليها بشكل كبير , فكان له إسهاماته النفسية الكبيرة على شعره وانطباعه عليها .

ولم يقف الشاعر في قصيدته على باب واحد مِن أبواب الحرمان التي أصابت ابناء بلده فهي تقدم شخصية البغي كأنموذج مِن النماذج التي تمثل حال المعدمين والمسحوقين على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والتي أصابت المجتمع بواقع الهجرة الذي ألم بالشاعر وأثر على نفسيته[٨] .

(٨) الشعر الحر في العراق , يوسف الصائغ , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ١٩٩٩م : ١١٤ .

فكل هذه الأحداث كانت لها أثرها النفسي على شخصية الشاعر فهو يقول[٩] :

إنّي شيت مع الجياع مع الملايين الغفيرة

فعرفت أسراراً كثيرة

كل اختلاجات القلوب وكلّ أنواع الدعاء والحاملات نذورهم

الموقدات شموعهنَّ تلقَ ألسنتها الكثيرة

كسر الرغيف

ويعتمون دَمُ الثدي إلى الدَماء

أنّي خبرتُ الجوع يعصر في دمي ويمص مائي

لسان حال الشاعر كان معبراً عن ملايين المصابين بالجوع والألم والحرمان , فهو تصويري مأساوي عكس بشكل ملفت للنظر السياسة المتبعة في ذلك الوقت , السياسة التي أفقدت المجتمع كل وسائل الراحة ووفرت لهم وسائل بديلة يحيط بها عناصر مِن القحط وسلب القوت مِن ابناء وطنه .

ولم يغادر الشاعر المعاني العامة التي انعكست على شخصية وبنيت الأثار عليها فهو يقول[١٠] :

كلّ الجياع وأهل قريتها أليسوا طيبين

كانوا جياعاً مثلها هي أو إليها بائسين

هم مثلها وهم الرجال ومثل آلاف البغايا

بالخبرز والأطمار والجسد

المهين هو كل ما يمتلكون هم الخطأة بلا خطايا وهم

---

(٩) الديوان , بدر شاكر السياب : ١/ ٥٠٩ .
(١٠) الديوان , بدر شاكر السياب : ١/ ٥٤٢ .

السكارى بالشرور كهؤلاء العابرين مِن السكارى بالخمور

هؤلاء الفاجرين بلا فجور الشاربين كمن تضاجع نفسها

ثمن العشاء الدافئين فروق بالية الجوارب في الحذاء

يتساومون مع البغايا في العشي على الأجور ليوفروا ثمن الفطور

الذل الذي يصوره الشاعر مِن الحاجة إلى القوت والأموال صورها الشاعر عبر تجربته التي عانى فيها ما عانا في حياته , ورغم كلّ المصائب التي مرّ بها الشاعر أوقعته في جوانب نفسية واسعة عكست ذلك على شعره .

ويمكن القول إنّ الواقع المأساوي الذي ألم بالمجتمع كان الأساس الذي تكرس في واقع السيّاب فقد تكالبت الأسباب لينصب ألمه في ذلك الواقع الذي جسده السياب وكان له مساس بجانبه النفسي , فهو بعكس ذلك الواقع التي تشكلت في وعيه بخطوط خلقها ظرف الوطن وطبيعة الحكم وتعدد الاغلال , وكل تلك الملابسات تظافرت لتمثل صورة الوطن , فهو يشعر بألم إلى تلك السلطة التي لا تعنى بغير إدامة وجودها بالتسلط والقهر واستحالة ذوي النفوذ وارضاء المستعمرين والخضوع لإداراتهم .

فكل الذي وصفه الشاعر نابع مِن تجربته الواقعية التي عاشها فهو لا يكاد يجد قدراً مِن المال في جيبه حتى يسرع ليطفئ ضمأه , وارتباط نفسياً بقبر الأم أو بالعودة إلى الرحم , فهو يصور صوراً متعددة فسيطرت عليه صورة الموت والجزع والشؤم فهو يقول[١١] :

وتنفس الضوء الضئيل

بعد اختناق بالطيوف والرعبات وبالجثام

ثم ارتخت تلك الظلام السود , وانجاب الظلام

([١١]) الزمن في شعر السياب , حسن عبد الراضي , دار الشؤون الثقافية , بغداد , ط١ , ٢٠١٣م : ١٧ .

فانجاب عن ظل طويل

حفار القبور

فهو قد تجاوز إحساسه النفسي بالظلم بل تعدت لتصل إلى الاغلال التي احاطت بالمجتمع كالفقر والظلم الاجتماعي التي تحيط به وبواقعه الجوانب السياسية والاجتماعية الذي أصاب الحياة بالركود, فهو ثورة داخلية يجسدها الشاعر على الوضع الذي كان يمر به المجتمع في بلاده فهو أسلوب للحياة اتبعه الشاعر ورسم كلّ ابعاده ليبين جوانب مؤثرة في واقعه النفسي .

ولكن رغم هذه التراكمات التي ملأت أركان الشاعر وحياته , قد بدأت مِن بدايات حياته وذلك الجرح الغائر في أعماقه والشعور بمرارة الفراق الذي صابته في حياته والذي ولد عنده الشعور بالغربة مِن خلال أحاسيسه بفقدان الأم , فكلما ضغط على أحاسيسه هاجت تداعيات عاطفته , وهذا نجده عندما يخاطب أمه بقوله[١٢] :

فيا قبرها أفتح ذراعيك

أنّي آتٍ بلا ضجة بلا آه

فهو أسلوب مِن تراكم تلك الأحاسيس التي حملها الشاعر فولدت له الغربة هذه الأحاسيس كلَّها اختلجت في نفس الشاعر وكأنّه يبحث عن شيء مفقود , قلب صفحات الأيام باحثاً عن هدف يبتغيه الشاعر وإن كان مجرد رؤية الابتسامة التي غارت عن حياته واشعرته بالغربة فهو يعبر عن ذلك بقوله[١٣] :

أماه ليتك لم تغيبي خلف سور مِن حجار

لا باب فيه لكي أدق ولا نوافذ في الجدار

---

(١٢) الآثار الشعرية الكاملة , بدر شاكر السياب : ٤٦ .
(١٣) الآثار الشعرية الكاملة , بدر شاكر السياب : ١٤٤ .

كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون

مِن ظلمة صفراء فيه كأنّها غسق البحار

ويمكن القول إنّ السبب الرئيسي للحالات النفسية المتراكمة عند الشاعر انطلقت مِن الشعور بفراق الأم , ذلك الحضن الدافئ الذي فقده الشاعر فأصبح يشعر بالألم الكبير والذي ولد حالة مِن حالات الغربة عنده , فهو يتيقن إن الأبواب كلّها اغلقت , فلم تفتح برحيلها , وليس الباب فقط وإنّما حتى النوافذ اغلقت , فهو طريق لا يعود منه السائرون .

فموت الأم وموت الجدة مِن البواعث الحقيقية التي قلبت فكر السيّاب وجعلت ملامح الحزن بادية عليه وأثرت في حياته , فالسيّاب عاش في أحضان جدته أبيه بعد موت الأم وهي التي بذلت قصارى جهودها لتربيته والعطف عليه , والسيّاب ذاق فقدان العطف وحرمان الأمومة , فوجد هذا الأمر جانباً نفسياً مهماً ومن أسباب ذلك الإحساس , وهنا وصف تلك الحالة بقوله[١٤] :

أسلمتني أيدي القضا للشجون

إذ قضى مَن يردّني لسكوني

قد فقدتُ الأمّ الحنون فأنستـ

ـني مصاب الأمُ الرؤوم الحنون

فهذا الرثاء نابع مِن قلب السياب المفجوع فهو يذكر ما عاناه مِن الألم والحسرة وما تحملته مِن خطوب وهو يستذكر موتها والوحدة التي تركتها بنفسه والقصيدة مفهمة بالوحدة وفقدان الاسناد الذي كان يحتمي به الشاعر فالخطاب كان موجهاً للقبر أن يكون رحيماً عليها فقال[١٥] :

---

(١٤) الديوان , بدر شاكر السياب : ١٥ .
(١٥) بدر شاكر السيّاب , شاعر الأناشيد والمراثي : ٦٦ .

ولابد للسيّاب أن يجد بديلاً لهذه الآلام والحسرات فكان خياره الآخر أن يجرب حالات الحب واختياره لامرأة تحاول أن تعوضه التجارب السابقة والحسرات التي ألمت به , ومحاولة منه لتعويض ما افتقده مِن حنان الأم وعطف الأب , كأسلوب مِن أساليب تبادل الحب وتشاطره آلامه التي كرستها غياب والدته وجدته , ومحاولة منه تقليل حالات الحزن التي سادت في حياته , ورغم كلّ ذلك فالشاعر لم يجد ما يسد تلك الثغرات التي عانى منها , فزادت الأسباب والجوانب النفسية التي عاشها الشاعر فهو يقول[١٦] :

وما من عادتي نكران ماضي الذي كانا

ولكن كل مَن أحببتُ قبلك ما أحبوني

حالة الصراع الحاصلة في نفس السيّاب بادية على قوله فهو يقارن بين الماضي وحاضره وبين الحب والكره وأنّه يحن لذلك الزمان الباقي وهو شدَّ مِن قبل الشاعر لذلك الوقت الذي حمل في طياته الكثير مِن الهموم التي بنيت في نفس السيّاب وعالقة في ذهنه .

إنّ ما حصل في حياة السيّاب هي انعكاسات لوقائع ماضية حملت جوانب نفسية واقعية مرّت عليه في حياته وأسبابه تلك الموارد التي وقعت له في حياته مِن فقده لأمه وجدّته وأحداث بلاده التي انعكست على واقعه الذي عاشه وبالتالي أثرت على شعره .

وبذلك فالشاعر مهما تقدم في افكاره إلى إنّه يعود إلى ماضيه وأيام الطفولة والأحلام وذلك الواقع الطفولي فأصبحت تجربته الذاتية عامة لمقدرة الشاعر الكبيرة في التعبير عن معاناته التي مرّت به , فانطلقت جوانبه النفسية مِن واقع الأم والجدّة التي تركت أثراً على نفسه وكان المنطلق لتحقيق

(١٦) الديوان , بدر شاكر السياب : ٣٩ .

جوانب نفسية ولعلها مِن الأسباب الرئيسية التي بقيت لها أثر كبير بُنيت عليه الأسباب الأخرى والانعكاسات الأخرى .

المبحث الثاني : تأثيرات الجانب النفسي والشعور بالغربة :

إنّ الانتقالات المتعددة في حياة السيّاب جعلت الغربة عنده واقع معاش عنده وجعل لهذه التنقلات تأثيراً على جانبه النفسي بقي يحمله على طول حياته مع ما مرّ بها على تبعيات مختلفة على جوانب حياته , وهذا الأمر أدى إلى افتراقه عن العالم الواقعي له والذي سبب له غربة نفسية قبل الغربة الواقعية فهو يقول[١٧] :

طرتُ عصافير الربى حين غادرت

كأنّ بتغريد العصافير مقتلي

رأيتُ بها شبهاً بدهر مجنح

فأبغضت أشباه العدو المنكل

كأنّي به لمّا يمد جناحه

يمدُّ لأكباد الورى حد فيصل

ألاّ ليت عمل اليوم يزداد ساعة

ليزداد عمر الوصل نظرة معجل

حالة الوصف التي أرادها السيّاب فيها مِن القسوة الشيء الكبير وهي مسألة طبيعية لواقع معاش عند الشاعر , فهي قوت حالة الاغتراب الحقيقي عند الشاعر والتي كانت بادية على كلمات الشاعر , فالغربة عنده خانقة لأنّه يجد مبادئ وقيم غير التي عرفها في ذلك المكان الأول في حياته وهي قرية جيكور , لتصبح تلك المدنية بذلك الفكر كأنّها مقبرة , حيث ضاعت سكينة الشاعر وهو يغادر القرية فأصبحت هذه التنقلات مِن مكان إلى آخر واقعاً

(١٧) الديوان , بدر شاكر السياب : ١/ ١٥٨ .

ملموساً في حياته يحمل مراحل متعددة , لكل مرحلة واقعها الخاص الذي يحمل بين طياته الكثير مِن الأفكار والوقائع التي تختلف مِن واقع لآخر , فكل واقع يحمل صفات عامة وخاصة , فالخاصة بقيت في نفسه تخالف غيرها , أمّا العامة فقد نقلت معه إلى مراحل أخرى , وهذا له تأثير كبير على جانبه النفسي والذي انعكس على كلّ حياته .

فالشاعر يرفض الواقع المكاني المحدد فالمدينة والقرية عنده ترمز إلى الموت والخيانة إلى اللاإنسانية , كل تلك المدن تقابل (جيكور) المنشأ الأول للشاعر , ذلك المكان الذي اكتسب القداسة في فكر الشاعر , وإشارة واضحة لتلك الطفولة البريئة والصبا والفتوّه والناس الفلاحين والبسطاء الذين تعايش معهم الشاعر وحمل معهم أفكار بقيت في ذهنه[١٨] .

واستطاع الشاعر أن يعبر عن تلك الغربة بلغة واضحة مفعمة بالعاطفة والألم فأصبحت تلك اللغة جزءً مِن التجربة التي عاشها الشاعر , فمأساة الاغتراب التي عبّرت عنها اللغة وصورتها بما تحمله مِن معاناة وقسوة , فالشاعر لا يجنح في إيصال تجربته , فطوع اللغة وجعلها تحتضن رؤياه وتحيط بتفاصيلها[١٩] .

فالشاعر أراد أن يعبر عن حالة الاغتراب التي أثرت على واقعه النفسي مِن خلال اللغة التي جعلها مسلكاً للتعبير عن واقعه اليائس , وعن ضياعه , وحالته النفسية المضطربة , فاللغة احتضنت تجربة الشاعر , فنجد أشعاره حملت أصدق صور الاغتراب الذي عاشه فقال[٢٠] :

وتلتفت حولي دروبُ المدينة

حبالاً مِن الطين يمضغن قلبي

ويُعطين عن جمرةٍ فيه طينه

حبالاً مِن النار يجلدْنَ عري الحقول الحزينة

ويحرقنَ جيكور في قاع روحي

---

(١٨) ينظر : الشعر العربي وروح العصر , جليل كمال الدين , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ٢٠٠٨م : ٤١٤ .

(١٩) ينظر : في بنية الشعر المعاصر و محمد لطفي اليوسفي , سراس النثر , تونس , ط١ , ١٩٨٥م : ١٣٣ .

(٢٠) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٤١٤ .

ويزرعنَ فيها رماد الضغينة

فالمفردات التي وظفها الشاعر في قصيدته مثل (يمضغن – يجلدن – يحرقن – الضغينة) فعبر بهذه الألفاظ عن حالة الغربة التي عاشها الشاعر والتي بينت تأزم حالته النفسية , حيث توسع إحساسه بالغربة , في كلّ مكانٍ مِن المكانات التي انطلق منها الشاعر وانتقل فيها فولدت هذه المعاناة حالة الاشمئزاز والتعب النفسي الذي عاناه الشاعر الذي فرضت عليه حالة الاضطراب والقلق حيث فرضت سلطة الاغتراب عليه كلّ ذلك .

فقال الشاعر[٢١] :

وجيكور الخضراء

مسَّ الأصيل

ذرى النخيل فيها

شمس حزينة

ودربي إليها كومض البروق

بدا واختفى , ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنار المدينة

خرج الكلام مِن واقع نفس السيّاب وهو يخاطب مدينته كأنّه سؤال للعاقل في خطابه لها , فالشاعر يمثل حالة الاغتراب الواقع في نفسه فهو يسترسل في ذكر هذا المكان الذي وصفه كأنّه قطعة خضراء يحن بالعودة إليه , وجعل هذا الارتباط بينه وبين جيكور كأنّه الأبن والأم ليترك ذلك الأمر في نفسه ضياءً وأملاً يشع في نفسه بقدر ما يشع في المدينة كلها .

ويستمر السيّاب وعاطفته مشحونة بالحزن والمأساة وهو يعيش حالة الاغتراب وما ولدته في داخل نفسه مِن حسرة ويستعين بتلك اللغة الملبية لنداء شاعر يعاني مِن اغتراب نفسي وواقعي واجتماعي وهو يقول[٢٢] :

جلس الغريب يشرح البصر المحير في الخليج

---

(٢١) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٤١٨ .
(٢٢) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٤١٨ .

ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعد مِن نشيج

أعلى مِن العباب يهدر رغوه ومن الضجيج

صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلى : عراق

كالمدّ يصعد كالسحابة كالدموع إلى العيون

فهو يعبر عن أحاسيسه الضائعة في الكون وهو قريب مِن وطنه العراق , فتفجر ذلك الصوت في قرارة نفس الشاعر تفجر الثكلى مِن ألمها بالفقدان والحرمان والشعور بالغربة حتى وصل الأمر بالشاعر أن تتولد جوانب الغربة لتصبح دمعة متعلقة في عينه , فوظف الشاعر اللغة توظيفاً ايحائياً شاركت معه الطبيعة حتى صرخت لصراخه وحزنه وهو ينادي باسم العراق وهو يعيش جوانب الغربة والحسرة .

وجعل الشاعر لكل كلمة مدلولها النابع مِن لحظة إبداع , إذ تتكدس الآلام وأحاسيس الاغتراب الموجهة ليعبر عن الصراع الذي ينتقل مِن النفس إلى اللغة , أين تصبح هذه الأخرى تشاطره معاناته[٢٣] .

ولكثرة المعاناة التي أصابت الشاعر وولدت في داخله جوانب وأحاسيس نفسية أصبح ما يذكره فيه نوع مِن التكثيف بسبب معاناة الاغتراب واحاطة جو الغربة فيه كلّ ذلك جاء بألفاظ مختلفة لكنها تصب في قالب واحد وهو قالب الغربة وألمها فيقول[٢٤] :

لتُسائل الغُرباء عَنّي , عن غريبٍ أمس راح

يمشي على قدمين , وهو اليوم يزحف في انكسار

فهو يضمن لفظة (الاغتراب) ليوحد بها معاني كثيرة تقع في حقل واحد لا تبتعد عنه أبداً , فعبر عنها بدلالة حركية مِن خلال حركة الغرباء ومشيهم وما تولده مِن أفكار في داخل نفسه وإبراز الشعور بالغربة التي تواكبها الحسرات والتذكر مِن قبل الشاعر لأيامٍ خلت مِن حياته .

فهو يقول[٢٥] :

---

(٢٣) ينظر : في بنية الشعر المعاصر , محمد لطفي اليوسفي : ١٤٧ .
(٢٤) الديوان , بدر شاكر السيّاب :
(٢٥) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٤٢٣ .

مَن ينزل المصلوب عن لوحه ؟

مَن يطرد العقبان عن جرحه ؟

مَن يرفع الظلماء عن صبحه ؟

ويبدل الأشواك بالغار ؟

وآه يا جيكور لو تسمعين ؟

فاستمرارية الزمن عند الشاعر مِن خلال دلالات الألفاظ في التبديل والرفع والطرد الذي وظفها الشاعر توظيفاً جعل المقاربة في المعنى متداخلاً فحقق بذلك التداخل حالة الاغتراب والضياع والذكرى, فهو تعبير عن معاناة الشاعر فتحقق الاغتراب عند الشاعر بشعوره باليأس الذي سيطر على نفسه وهو بعيد عن وطنه وعمّن يحب .

فالشاعر عندما يكرر لفظاً ما , فهو يشعر بضيق في نفسه وتأزم أحاسيسه النفسية وهو يعزز ذلك ويبرزه مِن خلال التكرارفي قصائده فهو يقول[٢٦] :

مطر ...

مطر ...

مطر ...

وفي العراق جوع

وينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشوان والحجر

رحى تدور في الحقول ... حولها بشر

مطر ...

مطر ...

(٢٦) الديوان , بدر شاكر السياب : ١/ ٤٢٣ .

مطر ...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل مِن دموع

ثم اعتللنا – فوق أن نلامَ – بالمطر

مطر ...

مطر ...

لا يخفى أنّ حالات التكرار التي تحققت عند الشاعر هي إشارة واضحة إلى حالة الحزن المخيمة على نفسه وأحاسيسه النفسية التي سيطرت على كلّ مفاصل حياته فهو شعور بالاغتراب الذي تمركز حول فكرة التكرار والكثافة المتحققة مِن هذا التكرار بغزارة المطر الذي يبرز حالة الألم والحرمان عند الشاعر , وهذا الشعور بقي مسيطراً على الشاعر وقلمه وفكره وإنّ ملامح الغربة عند الشاعر , أيّ شاعر تعبر عن واقعه الخارجي والداخلي الذي أدخله هذه المعاناة لذلك يلتجأ إلى لغة الحوار الذي يحاور الشاعر نفسه والطبيعة وأيام خلت مِن حياته وهو يستذكر أيام كان لها أثرها في نفسه فولدت واقعاً معاشاً عند الشاعر[٢٧] .

فالطلب المتولد في فكر الشاعر السيّاب رافق اللفظة بصورة عليه فهو عندما يحاور المطر ليعتبره منبعاً للحياة فيقول[٢٨] :

اقضِ يا مطر

مضاجع العظام والثلوج والهباء

مضاجع الحجر

وأنبت البذور ولتفتح الزّهر

واحرق البيادر العقيم بالبروق

وفجر العروق

([٢٧]) دلالة اللفظة داخل النص الشعري , سعيد أحمد رضا , دار العودة , بيروت , ط١ , ٢٠١١م : ٨٤ .

([٢٨]) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٤٦٣ .

وأثقل الشجر

فتلك المحاورة وظفها الشاعر توظيفاً مِن خلال (فجرّ – اثقل – أحرق) ألفاظ جاءت وفق صيغ حوارية مملؤة بالمأساة تشعرنا بألم الشاعر على بلده العراق وهو بعيد عنه , فعوامل الغربة بادية عليه وعلى ألفاظه , فتحقق امتزاج للشاعر بذلك الألم محققاً للغربة وقد تخطى هذا الحوار الصياغات الطلبية المتضمنة كوامن الشاعر النفسية .

فلم يقف الشاعر للتعبير عن واقعه المغترب باللفظة بل كانت متداخلة مع الصورة المرتبطة مع نفس الشاعر وخياله وفكره ومعاناته, فهو يخلق حالة مِن حالات التصوير يعمد فيه الشاعر إلى التنسيق في عناصر الصورة المتجلية والمتذبذبة وهي تختلف مِن حالة إلى أخرى وعمّا حملته مِن دلالات لغوية بعد أن يكشف العلائق التي تصحح مثل التنسيق , والربط بينه وبين ما لعناصره مِن أبعاد حقيقية, أي إنّ الدلالات اللغوية لعناصر الصورة وبين ما أراد الشاعر أن تكون معبرة عنه ودالة عليه بما يحمله مِن أفكار ومشاعر[٢٩] .

فنجد الشاعر السيّاب يلتجأ إليها عندما تضيق أحواله النفسية فهو يستطيع مِن خلالها أن يمزج بين الواقع والحلم , فهو يداخل بين الفكرة والعاطفة والإحساس ليخلق صورة فنية تعكس جوانبه النفسية فهو يقول[٣٠] :

أحببتُ فيك عراق روحي أو حببتك أنت فيه

يا أنتما – مصباح روحي أنتما – وأتى المساء

والليل أطبق , فلتشعا في دجاه فلا أتيه

لو جئت في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء

فالتداخل الصوري المتجسد مِن الواقع النفسي للشاعر قد تحقق مِن خلال صور متعددة منها (أتى المساء) و (أطبق الليل) و (ما كمل اللقاء) فالألفاظ التي أعلنها الشاعر في صور بينت واقع داخلي له وجسدت معنى الاغتراب , فاستحضار صورة الوطن في فكر الشاعر لا تعني سوى الشعور بالحب والإحساس بالغربة وهو يبتعد عنه

---

(٢٩) ينظر : بدر شاكر السياب , دراسة أسلوبية لشعره , إيمان محمد أمين , دار وائل , الأردن , ط , ٢٠٠٨م : ١٥ .

(٣٠) الديوان , بدر شاكر السيّاب : ١/ ٣٢٠ .

سواء في منفاه أو في مرضه , فهو أسلوب تحقق عند الشاعر بين تخيل الذكريات ومزجها بواقعه المعاش , وهو يبين كلّ ذلك مِن خلال الظلام الذي سيطر على كلّ أيامه .

وهذا يعني إنّ الصورة لا تنفصل بأي شكل مِن الأشكال عن اللفظة المنتقاة مِن قبل الشاعر لأنّها انبثاق عن معاني ودلالات تلك اللفظة التي لم تظهر بمحض الصدفة بل تتولد مِن جهد يبذله الشاعر وفق انتقائية دقيقة تقررها التجارب التي مرّ بها الشاعر وعاشها متولدة مِن جذور محسوسة عنده(٣١) .

وقد يجمع الشاعر مِن خلال صوره اختلافات عديدة تمثل حالة مِن حالات الاضطراب الواقعة في نفس السيّاب فهو لا يستطيع أن يجمع الأفكار المتقاربة , ويشعرنا مِن خلال حالة البوح عن عمق نفسي مؤلم عند الشاعر وهو يرسم عناصر جسدت حالة الاغتراب النفسي عنده فهو يقول(٣٢) :

الداء يثلج راحتي ويطفئ الغد ... في خيالي

ويشل أنفاسي ويطلقها كأنفاس الذبال

تهتز في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال

مشدودتين إلى ظلام القبر بالدّم والسعال

المعاناة الجسدّية حاضرة عند الشاعر وهو يقدمها بصورة الاستعارات , فيتغير الثلج في راحته ليطفئ بها غده الملتهب , وكيف تشل الأنفاس وتتوقف , فهذه الدلالات تحمل في طياتها دلالة تمركز الاغتراب في أعماق نفس الشاعر , فالاغتراب هو الذي كان سبباً في شلل النفس , فستعمل لفظ (شل) كقرينة على ذلك الفعل .

مِن خلال ذلك يمكن القول إنّ الجانب النفسي كان منعكساً على فكر السيّاب بصورة مستمرة ونجد تأثيراته واضحة للعيان سواء في ألفاظه أو صوره وكلّ ذلك يجعل الشاعر يعيش الغربة , سواء الغربة الداخلية في نفسه المتولدة مِن فراق مَن أحبهم , أو الخارجية وهي عدم فهم المجتمع له ولأفكاره فهو غريب بينهم .

---

(٣١) الاغتراب في الشعر العراقي , محمد راضي جعفر , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ٢٠٠٩م : ١٠٠ .

(٣٢) الديوان , بدر شاكر السياب : ١/ ٣١٧ .

الخاتمة

توصل الباحث عن جملة من النتائج :

- إنّه ما عاشه الشاعر السياب من حياة التعب والقلق النفسي والفكري انعكست على أشعاره بصورة كلية ، فلا تجد قصيدة من قصائده إلّا وهو انعكاس نفسي لحياته .
- استطاع الشاعر بدر شاكر السيّاب أن يعكس ظواهر الحزن في قصائده بصورة واقعية ما أن قرأت شيئًا منها إلّا وشعرت بهذا الواقع بشكل ملموس .
- الألفاظ التي استعملها الشاعر استعمالًا واقعيًا استكاع أن يبين من خلاله وقائع احاطت بحياته بصورة كليّة سواء في واقعه الطفولي أو في كبره .
- الأفكار التي صورها الشاعر في قصائده كانت من خلال تجاره التي عاشها ، فلم يفترض واقعًا مخالفًا لما كتبه ، فهي نابعة من واقعه النفسي .

المصادر

- الديوان , بدر شاكر السياب , دار العودة , بيروت , ط١ , ١٩٧١م .
- بدر شاكر السيّاب , دراسة في حياته وشعره , إحسان عباس , دار الثقافة , بيروت , ط٥ , ١٩٨٥م .
- دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر , قادة عقاق , اتحاد كتاب العرب , دمشق , ٢٠٠١م .
- اتجاهات الشعر العربي المعاصر , احسان عباس , دار الشروق , ط٣ , ١٩٨٣ .
- الشعر العربي المعاصر دراسة وتقويم , إيليا الحاوي , دار الكتاب العربي , بيروت , ١٩٨٦م .
- الشعر الحر في العراق , يوسف الصائغ , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ١٩٩٩م .
- الزمن في شعر السياب , حسن عبد الراضي , دار الشؤون الثقافية , بغداد , ط١ , ٢٠١٣م .
- الشعر العربي وروح العصر , جليل كمال الدين , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ٢٠٠٨م .
- في بنية الشعر المعاصر و محمد لطفي اليوسفي , سراس النثر , تونس , ط١ , ١٩٨٥م .
- في بنية الشعر المعاصر , محمد لطفي اليوسفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١، ١٩٩٩م .
- دلالة اللفظة داخل النص الشعري , سعيد أحمد رضا , دار العودة , بيروت , ط١ , ٢٠١١م .
- بدر شاكر السياب , دراسة أسلوبية لشعره , إيمان محمد أمين , دار وائل , الأردن , ط , ٢٠٠٨م .
- الاغتراب في الشعر العراقي , محمد راضي جعفر , دار الكتاب العربي , بيروت , ط١ , ٢٠٠٩م .